

الفصل الأول

تَمْهيد

إسرائيل دولة كبرى ثم . . إسرائيل دولة صغرى



إسرائيل . . دولة كبرى ! !

لكي نتبين حجم الطوفان العربي الذي اجتاحت إسرائيل في ٦ أكتوبر ١٩٧٣ يتحتم أن نلقى نظرة مدققة على الواقع الإسرائيلي قبل « الطوفان » ، وبالتحديد بعد يونية ٦٧ . هذا الواقع الذي يكنى جداً أن تلخصه تلك الجملة التي قالها أحد جنرالاتهم - منتشياً بالإحساس بالقوة - « إن إسرائيل الآن واحدة من الدول الكبرى » . وقد يكنى أيضاً أن نتذكر تصريح الجنرال شارون حين قال : « إن إسرائيل مستعدة لمحاربة حلف وارسو . . وهي قادرة على توجيه ضرباتها القاسية حتى القطب الشمالي ! ! » أقول . . قد يكنى هذا التصريح أو ذاك . . ولكننا ما دمنا بصدد دراسة علمية وثائقية . . فإننا - حتى لا يقال إن تلك الكلمات صدرت عن شخصين لا يمثلان إسرائيل - سوف نتوقف بشكل تفصيلي أمام أقوال وتصريحات وتصرفات مختلف عناصر القيادة الإسرائيلية والأفراد العاديين أيضاً. لنرى عدة صور توضح كيف كانوا ينظرون إلى أنفسهم وكيف كانوا ينظرون إلى العرب قبل السادس من أكتوبر ١٩٧٣ .

الصورة الأولى : لافتة فوق نقطة حصينة :

« كان ذلك في أحد الأيام الأخيرة من عام ١٩٦٨ ، والمكان هو موقع رأس العش في شرق القناة والذي تشبث به القوات المصرية ولم تنسحب منه في يونية ٦٧ بل قامت بصد وتدمير جميع الهجمات الإسرائيلية عليه والتي استمرت منذ ذلك التاريخ حتى وقف حرب الاستنزاف » . . وفي ذلك اليوم تحرك قائد الموقع المصري في عملية استطلاع للمواقع الإسرائيلية القريبة منه . . وحين وصل إلى نقطة (التينة) الحصينة . . شدت نظره لافتة ضخمة وضعها الإسرائيليون في مكان بارز من الحصن . . ، وبدأ الرجل في قراءتها وهو يشعر أن سكيناً حادة تمزق صدره . كانت اللافتة مكتوبة بثلاث لغات : « العربية » . . والإنجليزية والعبرية . . » وقد تضمنت الكلمات التالية :

« سنة ١٩٤٨ — أخذنا فلسطين .

سنة ١٩٥٦ — أخذنا شرم الشيخ .

سنة ١٩٦٧ — أخذنا سيناء .

سنة ١٩٧٥ — سنأخذ القاهرة !!! .

نسى الرجل نفسه لحظات . . وأخذ يعيد قراءة اللافتة الإسرائيلية وكأنه قد استمرأ تعذيب نفسه . . ، وفي أثناء ذلك نادى عليه جندي إسرائيلي - ولم يكن هو يضع علامات رتبته فوق كتفيه والتي تبين أنه قائد . وقال له الجندي .

« مصري . . يا مصري . أنا كنت في العريش إمبراح وكنت نايم مع أختك هناك !!! » .

. . وغلى الدم في رأس الضابط المصري . . وأحس بأن صدره يتمزق أكثر . . لكنه لم يرد عليه . . ودعا الله أن يأتي اليوم الذي يكون فيه الرد العملي البليغ . (بل إنه اقترح بعد ذلك على القائد العام حين بدأت حرب الاستنزاف أن يقوم باحتلال هذه النقطة أثناء أى اشتباك ، ولم يتصدق له بذلك .)

• ملحوظة بالغة الأهمية : في ٦ أكتوبر ٧٣ كان هذا الضابط الذي أصبح عقيداً قائداً للواء مشاة سمي باسم « لواء النصر » ، وقد وجه هذا اللواء ضربات عنيفة للقوات الإسرائيلية ، واستولى على أكثر من نقطة قوية . وكانت شعاعة قائده (العقيد عادل يسرى) مثار الإعجاب ، حتى إنه سمي « روميل العربي » .

الصورة الثانية : كل شيء . . على ما يرام !

. الزمان : يونية عام ١٩٧٣ . المناسبة : انعقاد المؤتمر الاقتصادي في إسرائيل . الجنرال موشيه ديان يقف أمام أعضاء المؤتمر ، ليلقي بخطبة جديدة من سلسلة خطبه العديدة . ويقول وابتسامة الثقة ترسم على شفتيه :

« طالما أن لنا جنوداً إسرائيليين ، وأن قناة السويس هي حدودنا العسكرية وأن العرب هم أعداؤنا . . فإن كل شيء على ما يرام » .

هكذا تحدث الجنرال ديان الذي استقبل المؤتمرين كلماته بالتصفيق والهتاف . . وربما ابتسم الكثيرون منهم . . وهو يقول : « طالما أن العرب هم أعداؤنا . . فإن كل شيء على ما يرام » .

الصورة الثالثة : « ونحن لا نبألى » :

مجموعة من الشباب الإسرائيلى . . يمسك أحدهم براديو ترانزستور . . انطلقت منه أغنية مشهورة فى إسرائيل - وأخذ الجميع . . يرددون مع المغنى :

العالم كله ضدنا . .
لا يهمننا ! !
العالم كله ضدنا . .
ونحن لا نبألى
العالم كله ضدنا . .
لا يهمننا ! !

الصورة الرابعة : « لا نخجل من شىء ! » .

« الزمان : ١٠ أبريل عام ١٩٧٣ . المكان : قلب بيروت .
« تسلل عدد من جنود الكوماندوز الإسرائيليين الذين أحسن تدريبهم إلى قلب العاصمة اللبنانية (العربية) وقتلوا ثلاثة من القادة الفلسطينيين داخل بيوتهم إذ أمطروهم بوابل من رصاص بنادقهم الرشاشة الجديدة من طراز « جليل » المصنوع فى إسرائيل . (إنه عمل رمزى) .

حدث ذلك . . ولم تعباً إسرائيل يردود الفعل العربية والعالمية . لهذا العمل الذى يتسم بالغدر والتبجح . حتى أن السيدة جولدا مائير رئيسة الوزراء وقفت أمام عدسات المصورين وقد ملأت الابتسامة السعيدة تجاعيد وجهها . . وهى تقول « إنها عملية رائعة . . إننا - فى إسرائيل - يجب ألا نخجل من شىء ! ! .

ونتقل الكاميرات إلى بقية القادة والجنرالات . . وتتسم كل التصريحات باحتقار العرب . والاستهزاء بالرأى العام العالمى . بل إن رئيس الأركان - الجنرال دافيد اليعازار قال وهو يشير بسبابته : « لسوف يأتى اليوم الذى نفعل فيه الشئ نفسه فى العاصمة الليبية طرابلس » .

الصورة الخامسة : « من الخرطوم إلى .. بغداد .. إلى الجزائر .. والعكس ! ! »

الزمان : ٢٠ يولية ١٩٧٣ المكان : صفحات جريدة معاريف

« تنصدر الصفحة الأولى صورة القائد الإسرائيلي المنتفخ الأوداج إريل شارون . .
بمناسبة إيدلانه بتصريح جديد . . قال فيه بالحرف الواحد : إن إسرائيل الآن قوة عسكرية
عظمى ، فأى دولة أوربية أضعف منها عسكرياً .
« إننى أرى أنه ليس هناك أى هدف عسكري أو مدنى من الخرطوم إلى بغداد
والجزائر - بما فى ذلك الأراضى اللبية - إلا ويستطيع الجيش الإسرائيلى غزوه فى خلال
أسبوع واحد » .

الصورة السادسة : « لو أطلقوا قذيفة واحدة ! ! »

الزمان : أحد أيام شهر فبراير عام ١٩٧٣ المكان : مرتفعات الجولان .
« مجموعة من الشباب الإسرائيلى يقومون بزيارة للجولان ، يقف بينهم الضباط
اليهود . . ويقولون لهم ضاحكين :
« انظروا إلى العرب . . إنهم إذا أطلقوا قذيفة ١٠ دفع واحد . . فإننا سنكون فى دمشق
فى اليوم التالى مباشرة » .
.. وتنطلق الضحكات من الجميع !

الصورة السابعة : « أيها الجبناء .. ماذا تنتظرون ! ! »

الزمان : مارس ١٩٧٣ المكان : الساتر الرملى على الضفة الشرقية
لقناة السويس .

« مجموعة من الجنود والضباط الإسرائيليين . . تركوا موقعهم ووقفوا فوق الساتر بجوار
إحدى نقاط الملاحظة . . يأكلون البرتقال ويلقون بالقشر فى مياه القناة الراكدة ، ويصبحون
على بعض الجنود المصريين فى موقعهم بالضفة الغربية . . ويحركون أصابعهم نحوهم بشكل
فاضح ومستفز . ولا يكتفى أحدهم بذلك بل يهبط من فوق الساتر . ويفك أزرار بنطلونه . .
لكى يتبول فى القناة ! .. ويظهر ضابط مصرى . . وفى يده ميكرفون صغير ويوجه كلامه
للجنود الإسرائيليين ، متحدثاً عن ضرورة وقف الاستفزاز . . وعن الدوافع الإنسانية

والأخلاقية التي ينبغي أن تدفعهم إلى مناقشة قادتهم في سياستهم العدوانية التوسعية . ثم يحدثهم عن جماعة اليهود السود في القدس وكيف تحمل راية العصيان على المؤسسة العسكرية - وللسياسة العنصرية والتوسعية التي تتحكم في إسرائيل .

« ولم يكذ الضابط المصري ينتهي من كلماته ، حتى تدافع الجنود الإسرائيليون على ميكرفون أمسك به أحدهم ، وأخذوا يتسابقون إلى إلقاء النكات القاسية والجارحة على الجنود المصريين ، كما تحدثوا عما أسموه بالتخلف في مصر والجن الأبدى الذي يطبع الجيوش العربية في مواجهة جيش الدفاع الأسطوري . . ولم يكتف أحدهم بذلك بل إنه أمسك بالميكرفون وأخذ يصيح فيه موجهاً كلامه للجنود المصريين الذين ظلوا في أماكنهم على الضفة الغربية يسمعون أو يتجاهلون ما يدور في تلك الساعة .

« قال لهم الجندي الإسرائيلي :

« ماذا تنتظرون كي تعبروا ؟ هذه ليست بحرب ولا بسلام أيضاً . إنه حائط أيها الجبناء ! ! ! » .

« في تلك اللحظة بالذات قبض الجندي عطية على رشاشه وكاد يفتح نيرانه عليهم لولا أن أمسك به زميله « صابر » وأخذ يهدئ من ثورته . . وكانت الدموع تطفر من عيني « صابر » جندي المؤهلات الذي مضى على وجوده في هذا الموقع ثلاث سنوات كاملة . ودعا الضابط المصري جنوده إلى النزول إلى خنادقهم . . وظل هو مكانه . . لا تتعد نظراته عن مياه القناة الراكدة . . ولم تهدأ ضحكات الجنود الإسرائيليين فوق الساتر الشاهق .

الصورة الثامنة : « أنا بمفردى . . أوقفهم ! ! ! »

في أحد أيام عام ١٩٧٠ . . سألت صحفي جنرالاً إسرائيلياً (عمل كرئيس للأركان قبل ذلك) عما قد يحدث لو حاول المصريون عبور القناة ، ففهمه الجنرال . . وأخذ يدق بيده على فخذه . . ثم رد على الصحفي قائلاً : « إنني - بمفردى - وبمدفع هاون عيار ٨١ - أستطيع أن أوقف عبورهم » .

الصورة التاسعة : « السادات . . لم تواته الشجاعة ! ! »

١ - في ١٩ سبتمبر ١٩٧٣ وجهت جولدا مائير رسالة إلى يهود الشتات بمناسبة العيد الجديد . قالت فيها :

« إن هناك سببين رئيسيين للهدوء الذى يسود خطوط وقف القتال هما قوة الردع لدى الجيش الإسرائيلى ، والقوة الداخلية فى إسرائيل . »

٢ - فى ٣ سبتمبر من العام نفسه وعند افتتاح مستعمرة (هامبوهاد) قالت رئيسة الوزراء الإسرائيلية :

« إن السادات لم تواته الشجاعة لكى يعترف بأن عليه أن يقيم السلام مع إسرائيل لأنه عاجز عن هزيمتها فى ميدان القتال . »

الصورة العاشرة : « نحن . . الأقوى »

الزمان : ٩ أغسطس ١٩٧٣ المكان : الأكاديمية العسكرية الإسرائيلية

المناسبة : تخريج دفعة جديدة من الأكاديمية .

المتحدث : الجنرال موشيه ديان .

التصريح : « إن ضعف العرب يأتى نتيجة عوامل أعتقد أنها لن تتغير فى وقت قريب .

وهذه العوامل هى : المستوى المنخفض لتعليم جنودهم وقدرتهم التكنولوجية ،

والانقسامات السائدة فى العالم العربى - أما شبابنا الإسرائيلى فعلى

العكس من ذلك فإن صفاتهم عالية سواء من الناحية الثقافية أو

التكنولوجية » أو فيما يتعلق بالمهارة والروح القتالية . فضلاً عن ذلك فإن

خطوطنا العسكرية قد أصبحت ملائمة لنا تماماً . وقد أعدت جيداً

للدفاع والرقابة الإلكترونية . لهذه الأسباب أقول إن الحرب مستحيلة الوقوع

الصورة الحادية عشرة : على مصر أن تستعير طيارين ألمانيا :

بعد حرب يونيو ١٩٦٧ . . أجرت صحيفة ألمانية غربية مع الجنرال موشيه ديان حديثاً

طويلاً . . كان فيه ديان - كمعاداته - فى مئات الأحاديث التى ظل يدلى بها منذ كانت

تلك الحرب - يتحدث فى ثقة بغير حدود . . . وقد سأله الصحفي الألمانى فى ذلك اليوم

من عام ١٩٦٨ عما إذا كان الجيش المصرى يستطيع هزيمة إسرائيل فى أية حرب قادمة ؟ .
فارتسمت ابتسامة عريضة على وجه ديان وقال باقتناع كامل :
« ليس لدى المصريين أدنى فرصة . . إنهم فقط يستطيعون أن يحاربوا أفضل إذا ما
حصلوا على طيارين ألمان ! ! » .

الصورة الثانية عشرة : استعراض القوة فى آخر ذكريات النصر ! !

الزمان : ١٥ مايو ١٩٧٣ .
المناسبة : احتفال إسرائيل بذكرى قيامها وذكرى انتصارها فى حرب يونيو من عام ١٩٦٧ .
المنظر العام : أعضاء الكنيست والحكومة والجنرالات وجماهير الشعب الإسرائيلى
يصطفون فى زهو ونشوة لمشاهدة العرض العسكرى لجيش الدفاع الإسرائيلى الذى لا يقهر .
يبدأ العرض الكبير . . فتظهر طائرات الفانتوم القاذفة المقاتلة ، وتظهر طائرات
السكاى هوك لتخلق فى السماء وقد قاد إحداها الجنرال مورد خاى هود قبل
تقاعده ثم تتوالى فى ساحة العرض المدرعات التى تحمل شعار « الفخر للمدرعات » ،
ثم منصات الصواريخ وطواير المشاة الميكانيكية فى عرض أنفق عليه أكثر من تسعة ملايين
من الدولارات ، وتم إخراجها بطريقة معينة لتتناقله وكالات الأنباء العالمية ، وكاميرات
التليفزيون والسينما ، بحيث يعطى انطباعاً محدداً عن عظمة « جيش إسرائيل القوى »
والدولة الفتية القوية التى قامت وسط صحراء التخلف العربى

* * *

* تلك كانت أمثلة محدودة جداً . . من عشرات ومئات الصور والمواقف والتصريحات
التي عزقتها الفرقة السيمفونية للدعاية الإسرائيلية - منذ عام ١٩٦٧ ، وبعد ذلك الانتصار
الذى حققه جيش الدفاع - فى ظروف غير طبيعية - على القوات العربية - عشرات
ومئات الصور التى تقول بمنتهى الوضوح والثقة : إن إسرائيل بجيشها الذى لا يقهر ،
وجبهتها الداخلية القوية . واقتصادها المزدهر لم تعد أقل من أى دولة كبرى ! !
ولكن حيث إن هذه « الصفة الضخمة » أكبر من أن أدلل عليها باثنتى عشرة صورة
فقط ، فإننى أتوقف الآن أمام أمثلة محدودة جداً لما قاله الآخرون عنها حتى يتضح الجانب
الثانى من جوانب الصورة - وكما يراه العالم نفسه .

لغة الجيش الذى لا يقهر :

فى أعقاب يونية ١٩٦٧ أرسل رئيس تحرير مجلة دير شبيجل الألمانية الغربية خطاباً إلى السيدة جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل قال فيه بكل الانبهار :

« إننى يا سيدتى أشعر بالأسف الشديد لأننى أصدرت ملحق المجلة الخاص بالانتصار الإسرائيلى باللغة الألمانية .

إننى سأفرض على المحررين فى دور الصحف التى أملكها أن يتعلموا العبرية . .

لغة جيش الدفاع الذى لا يقهر !! » .

ميدالية ديان :

فى ذلك العام أيضاً . . وبكل الحماس المستيرى أصدر وزير المالية الهولندى أمراً إلى دار سك النقود ، بأن تبادر على الفور بسك ميداليات ذهبية وفضية وبرونزية تكون صورة موشى ديان (بالرباط على عينه اليسرى) فوق وجهها الأول ، وتكون النجمة السادسة . . نجمة صهيون وجهها الثانى !!

ولقد صدرت هذه الميداليات بالفعل ، وسرعان ما تحولت إلى « موضة » انتقلت من هولندا إلى أوروبا الغربية . .

تعلموا . . من جيش الدفاع . . أيها السادة !

فى آخر سلسلة من التحقيقات والريپورتاجات التى نشرت فى صحيفة الديلى تليجراف عن جيش إسرائيل الأسطورى - قال المحرر العسكرى : « إن حرب الأيام الستة . . يجب أن تكون البوصلة الهادية لكل العسكرين الغربيين وغير الغربيين . . وكل المسؤولين فى الأكاديميات العسكرية فى العالم .

. . وإن صورة موشى ديان يجب أن توضع جنباً إلى جنب مع صور الأبطال العسكرين عبر التاريخ » .

لن تقع أية حرب !

في سبتمبر من عام ١٩٧٣ قال الخبير العالمي « هولبروك » في مجلة السياسة الخارجية الأمريكية التي يعمل أيضاً رئيساً لتحريرها :

« إن إسرائيل لم يسبق لها طوال تاريخها المضطرب أن كانت آمنة بمثل هذا القدر ، ولا متفوقة من وجهة النظر العسكرية بمثل هذا التفوق - وبعد انقضاء ست سنوات على حرب الأيام الستة ، فإن نشوب حرب صريحة بين إسرائيل وجيرانها العرب يبدو أقل احتمالاً مما كانت عليه في أى وقت من الأوقات . »

« ملحوظة قصيرة جداً : (اندلعت شرارة الحرب . . وتعرضت إسرائيل للطوفان العربي ، بعد أقل من شهر من نشر مقال الخبير الأمريكي الكبير هولبروك) . »

أفضل طيارين في العالم :

في شهر أغسطس ١٩٧٣ (قبل دراسة رئيس تحرير السياسة الخارجية الأمريكية بشهر . . وقبل اندلاع شرارة الحرب بأقل من شهرين) صدر التحليل الأخير للميزان العسكري عام ١٩٧٣ - ١٩٧٤ عن المعهد الدولي للدراسات الإستراتيجية بلندن . وقد جاء في هذا التحليل أن التفوق الجوي الإسرائيلي قد تدعم بدرجة كبيرة . . حيث وصل مجموع ما لدى إسرائيل الآن ٤٨٨ مقاتلة قاذفة يتفوق أغلبها على طائرات الميج ، وإنه من دواعي فخر إسرائيل أن لديها أفضل الطيارين في العالم ! !

العلم الإسرائيلي فوق السد العالي :

في روايته « مياه أسوان » تصور الكاتب الألماني « ميكائيل حاييم » أن إسرائيل قادرة على الوصول إلى السد العالي بفضل جنودها الجدد من العلماء . فتخيل أن المصريين يستيقظون ذات يوم ليجدوا علم إسرائيل فوق السد العالي ، فقد وصلت إسرائيل إلى هذا المكان أيضاً ، وأصبحت أعلامها تنتشر فوق عوامات من المطاط تقف أمامه ، ثم بدأ قادة إسرائيل يعقدون المؤتمرات الصحفية التي يقولون فيها إن مصر في جيوبهم ، وإنهم سوف ينسفون السد العالي فتغرق مصر بمن فيها من المصريين . وبالفعل - كما تخيل الكاتب - زحفت مياه بحيرة ناصر إلى البحر الأبيض المتوسط ، وتهدم الهرم الأكبر ، وغرقت الأشجار

والبيوت وطففت جثث المصريين على سطح مياه الفيضان ، وعند ما يتم اكتشاف المادة التي ألقاها العالم اليهودى وأدت إلى هذا الفيضان ، يكون الدمار قد عم كل أرجاء الدلتا ووادى النيل ، وأصبحت مصر - بلا مصريين - لقمة سائغة فى يد إسرائيل المنتصرة التى تستطيع الآن أن تحقق أحلامها فى بناء الدولة التى تمتد من النيل إلى الفرات .

لا أمل . . لا حل . . أو هى القنبلة الذرية ! !

فى أبريل ١٩٧٣ وصل كبير الخبراء السوفييت الجنرال « لاشنكوف » إلى مصر لدراسة مطالبا من بعض الأسلحة ، وكان برنامج زيارته يتضمن جولة فى المواقع التى اتخذتها القوات المصرية غرب القناة ، وحينما وصل الجنرال الكبير إلى الإسماعيلية ، استقبله اللواء سعد مأمون قائد الجيش المصرى الثانى . ودار بينهما هذا الحوار البالغ الأهمية :

- الجنرال لاشنكوف : كيف ترى الكفاءة القتالية لقواتك !

- اللواء سعد مأمون : ممتازة . . ممتازة للغاية .

- الجنرال لاشنكوف : وما تقديرك للكفاءة الفنية لأسلحتكم ؟

- اللواء سعد مأمون : مائة فى المائة .

* * * حينئذ نظر الجنرال السوفييتى إلى المصاطب الترابية المرتفعة - التى أنشئت على الضفة الغربية بعد خروج الخبراء السوفييت - وسأل عن الهدف من إقامتها ، وشرح له سعد مأمون فكرتها بصفة عامة دون أن يتناول التفاصيل ثم وجه الجنرال لاشنكوف بصره إلى الضفة الشرقية حيث ترتفع السواتر الترابية للعدو . . وسأل قائد الجيش الثانى :

- ما تصورك ؟ كيف يمكن أن تعبر قواتك مع وجود هذا الساتر المرتفع إلى ٢٠ متراً ؟

* * * ولسبب ما لم يشر اللواء سعد مأمون إلى الابتكار المصرى المتمثل فى استخدام مدافع المياه (التى أثبتت نجاحها المذهل بعد ذلك وحين بدأت الحرب) - لكنه قال له : « ستفجر هذا الساتر بالديناميت وسوف تعبر دباباتنا فى ثلاث ساعات .

فقال الجنرال السوفييتى الكبير :

« إنكم تفكرون فى الحرب بأساليب عام ١٩١٤ قبل أن تخترع الدبابات . .

هل تتصور يا جنرال أن المقاتل الفرد فى الحرب الحديثة يستطيع أن يتصدى لدبابة ؟ إن دبابات إسرائيل أمامكم . . فكيف يمكن مقاومتها بغير الدبابات ؟

وتساءل اللواء سعد مأمون - بمنتهى الخبث :

- وماذا نستطيع أن نفعل ؟ هل لديكم فى الاتحاد السوفيتى شىء نقاوم به هذه السواتر الترابية الشاهقة ؟ لقد وصلتم إلى القمر . . ولا بد أن لديكم شيئاً جديداً يمكن أن يفيدنا ؟

- فرد الجنرال لاشكوف قائلاً : آسف . . آسف جداً . . إننا لم نواجه مثل هذه الموانع من قبل ! ! » .

* هكذا كان تصور الجنرال السوفيتى الكبير لاستحالة أى تحرك عسكرى من قبل مصر . . وقد وصل جنرال سوفيتى آخر إلى الحد نفسه من اليأس حين قال للمشير أحمد إسماعيل على قبل الحرب بشهور - وهو يشير أيضاً إلى الساتر الترابى : « إنكم تحتاجون إلى قنبلة ذرية . . لكى تتغلبوا على هذه المشكلة ! ! » . .

كيف كان ينظر العرب إلى إسرائيل . . وإلى أنفسهم ؟ .

* لن أستطرد كثيراً فى هذا الجانب من جوانب الصورة التى تبدى فيها إسرائيل عظمة وكيرة وأسطورية القوة (مقارنة بالعرب . . أو بغيرهم . .)
لن أستطرد كثيراً . . لأن أقل القليل مما كان يقوله أو يفعله العرب . . يضيف بشكل مكثف ومركز لهذه الصورة . وبالتالي فإننى أكتفى بهذه الجزئيات .

تمزيق الماضى والحاضر والمستقبل :

كانت النخمة السائدة فى العالم العربى هى التهويل من قوة إسرائيل . والتهوين من القوة العربية ، حتى إن بعض الشعراء العرب انهاروا بخناجر اليأس على الحاضر والمستقبل العربى . . بل إن الماضى العربى نفسه - وبرغم عراقته - لم يسلم من التمزيق والتشويه .

مطلوب عشر سنوات :

لم يجد بعض القادة العرب أى حرج فى التصريح بما يعتقدونه ، فعلى سبيل المثال قال وزير الدفاع اللبناني نصرى معروف فى ٢٢ أغسطس من عام ١٩٧٣ (إننا نحن العرب نحتاج إلى عشر سنوات على الأقل لكى نصل إلى مستوى قوة إسرائيل .)

هل تتحول المدافع إلى مواشير مياه :

تزايدت الشكاوى من الضعف والخلل في أمور الحياة اليومية ، حتى إن أكثر من كاتب مصرى أخذ يصرخ - حين تكرر انقطاع المياه وتلوّثها في القاهرة - بكلمات يهزها اليأس ، فقال أحدهم : « إذا كنا بالأمس قد غرقنا في شبر ميه حينما زاد المطر عن حده ، وإذا كنا اليوم نفشل في حل مشكلة المياه . فكيف نتصور أننا نستطيع أن نخوض حرباً مع إسرائيل ؟ . . . ويبدو أن جنرالاً إسرائيلياً قرأ هذه الكلمات الشاكية البائسة ، فتطوع باقتراح حل سريع . بقوله « لماذا لا يحول العرب مدافعهم إلى مواشير مياه ؟ . . » .

وانهمكوا في اختيار أجمل كلب :

وصل الهبوط باهتمامات الإنسان العربي - اللهم إلا من تمالك واحتفظ بالأمل قوياً في صدره - وصل ذلك الهبوط إلى الحد الذي نظمت فيه مسابقة كبيرة في بيروت لاختيار « أجمل كلب ! ! ! » .

الأنتم . . واليأس :

تكررت الضربات الإسرائيلية استعراضاً لقوة جيش الدفاع الذي لا يقهر . . فأسقطت طائرة الركاب الليبية بمن فيها من مدنيين راحوا ضحية الجريمة . وتكررت غارات الكوماندوز الإسرائيليين على بيروت وكان أبرزها وأكثرها تحدياً للمشاعر العربية والعالمية قتل عدد من زعماء المقاومة الفلسطينية داخل بيوتهم !

ثم كان ذلك الاشتباك الجوي الذي حدث في ١٣ سبتمبر ١٩٧٣ فوق ميناء طرطوس السوري . . والذي انتهى بإسقاط ١٣ طائرة سورية مقابل طائرة واحدة إسرائيلية . . واتسعت الابتسامات فوق وجوه الإسرائيليين الذين عبر عنهم معلقهم العسكري حاييم هيرتسوج بقوله : « هكذا . . سيعرف العرب كيف يحترمون وقف إطلاق النار ؟ ! » . . أما في الجانب العربي . . فقد انطوى الكثيرون على الإحساس بالمرارة واليأس ! !

* * *

فجأة . . إسرائيل : دولة صغرى !!

. . تلك كانت صورة إسرائيل (الكبرى) كما رسخت تماماً في أذهان الإسرائيليين أنفسهم ، والعالم كله !! . فهل كان هناك من يتوقع أن تندلع الحرب في الشرق الأوسط ؟؟ هل يبلغ الجنون بالعرب إلى حد التفكير في شن حرب يواجهون فيها مرة أخرى الجيش الإسرائيلي الذى لا يقهر؟؟

المؤكد أن أكثر المتفائلين جنوحاً في الخيال لم يتوقعوا ذلك . وخاصة أن القيادة المصرية رسمت لنفسها - عمداً - في أذهان الجميع صورة أقل ما توصف به : الضعف والتردد والاستسلام والانهزامية !

ولكن ما لم يكن متوقعاً . حدث بالفعل . . وأصبح واقعاً مثيراً ، فلم تكد عقارب الساعة تصل إلى الثانية وخمس دقائق من ظهر السبت السادس من أكتوبر من عام ١٩٧٣ ، حتى كانت موجات العبور المصرية تندفق شرقاً إلى سيناء متحدية أعنى الموانع وأقوى الحصون ، واندفعت موجات المغاوير السوريين لتجتاح المواقع الإسرائيلية فوق الجولان ! وبطبيعة الحال لم يحدث ذلك من باب الصدفة أو الفوران المفاجيء ، بل كان نتيجة منطقية لمقدمات وإعداد وتخطيط فاق كل التوقعات .

* وقبل أن أدخل في تفاصيل « الطوفان » الذى فجره العرب في هذا اليوم ليكشف الحجم الحقيقي لإسرائيل ، فإننى أجدرنى مضطراً إلى وقفة سريعة أمام ردود الفعل الأولى من الجانب الإسرائيلى . . أعنى التصريحات والتهديدات التى تدافع بعضها وراء بعض في إيقاع صاحب عصبي طوال الساعات الثاين والأربعين الأولى من الحرب أو الطوفان . أتوقف أمام هذه التصريحات الواثقة أحياناً والعصبية كثيرة لأنها لم تكن سوى « الرتوش » الأخيرة في صورة إسرائيل « الكبرى » قبل أن تنهار وتتقلص !

جيش اللدفاع سيحل أزمة المساكن والمواصلات في مصر !

* قالت جولدا مائير - بمجرد اندلاع الحرب :

« لقد كانت المخابرات الإسرائيلية تعلم منذ بضعة أيام أن الجيوش السورية والمصرية حشدت للقيام بالهجوم في وقت واحد ، وقد اتخذت قواتنا الاستعدادات العسكرية

اللازمة لمواجهة الخطر . (ونحن لا نشك أبداً في أننا سننتصر)
« بعد هذا التصريح الواثق جداً . . المطمئن جداً . . وفي اليوم الثاني من أيام الحرب الطوفانية . . اتصل وزير الخارجية الأمريكي بالسيدة جولدا مائير . . وسألها عن الموقف . . في جبهات القتال . . فقالت له . . بنفس الثقة . ونفس الغرور : « أعطني - يا عزيزي كيسنجر - أربعاً وعشرين ساعة أخرى لكي يتمكن جيش الدفاع الإسرائيلي من حل أزمة المساكن والمواصلات في مصر ، وذلك بإلقاء جيشها كله في قناة السويس !! »

سنضربهم ضرباً مبرحاً . . سنسحق « كليتهم » :
استمع الإسرائيليون في ساعات الحرب الأولى . . إلى التصريح الثاني - وقد جاء هذه المرة على لسان معشوقهم الأول وجنرالهم المدلل موشيه ديان الذي نقل الأثير العبري كلماته الحادة الواثقة التي تقول :
« إننا سوف نلحق بالعرب هزيمة مجلجلة ! إننا سوف نضربهم ضرباً مبرحاً . . وسوف نسحق « كليتهم » .
إن تحقيق النصر على هؤلاء العرب لا يحتاج منا إلى شهور أو أسابيع أو حتى أيام . . إنها مسألة ساعات فقط . »

مؤتمر « سحق العظام » :
بعد ذلك تقدم دافيد اليعازر رئيس الأركان ليأخذ دوره في طابور قادة إسرائيل الواثقين المطمئنين المهديدين للعرب بالويل والثبور . وعظائم الأمور !
وفي مؤتمر صحفي عقد في قاعة بيت سوكلوف للمؤتمرات - وهي المركز الصحفي لجيش الدفاع الإسرائيلي - قدم اليعازر عرضاً إجمالياً لنتائج الـ ٤٨ ساعة الأولى من الحرب ، ثم بدأ وقد تقلص فكاه وبرقت عيناه في نوبة غضب جامح في توجيه تهديداته . . فقال بالحرف الواحد :
« إننا سوف نطارد المصريين والسوريين في كل مكان . سنلاحقهم وسنسحق عظامهم » .

نهاركم - أيها العرب - أسود !

كانت التهديدات الواثقة التي تؤكد أنها تصدر عن دولة كبرى قادرة . . لها ذراعها الطويلة المستعدة « لتأديب العرب في كل مكان وكل زمان » كانت هذه التهديدات تتوالى بغير انقطاع سواء من خلال القادة والجنرالات . . أو من خلال إذاعتهم الرسمية . . وفي مساء اليوم الأول للحرب هدد راديو إسرائيل العرب بقوله : « إننا سنحول نهاركم إلى ليل . سنجعلكم ترون النجوم في وضوح النهار ، وسنمرغ وجوهكم وأنوفكم في الوحل .. إن زعماءكم « السادات والأسد وغيرهما » سوف يدفعون الثمن غالياً .

بأنفسهم . . سعى العرب . . إلى مصيرهم :

استخدمت إسرائيل في تنفيذ التعبئة كل وسائل المواصلات العسكرية والمدنية . . وازدحمت الأتوبيسات بجنود الاحتياط الذين تم استدعاؤهم وكانت الكلمات التي تتردد بين هؤلاء الجنود . . كما سجلها « جان كلود جيويه » في كتابه « الأيام المؤلمة في إسرائيل » - كانت هذه الكلمات تعبر عن الثقة الهائلة في أنفسهم وفي دولتهم القوية القادرة .

فكانوا يقولون :

- * « إن العرب قد سعوا إليها بأنفسهم »
- * « إن هذه الحرب ستكون نزهة أفضل من حرب ١٩٦٧ »
- * ويضيف (جان كلود جيويه) إلى هذه الصورة التي تترجمها كلمات الجنود الإسرائيليين (الذين لا يقهرن) . . ما قاله واحد من هؤلاء الجنود - يدعى هنرى - لزوجته وهو يعانقها مودعاً :
- * « إنني سوف أعود يوم سوكوس (أى يوم الخميس القادم) ، إذ أن ستة أيام تكفي للإطاحة بالسوريين والمصريين ! ! »
- * ويعلق المؤلف الفرنسي على هذه الكلمات بقوله « إنها كانت الكلمات نفسها تقريباً التي تبادلها الجنود الإسرائيليون مع زوجاتهم وصديقاتهم . . قبل أن يتجهوا إلى جبهات القتال » .

حزنت عليكم !

بعد وقف إطلاق النار . . وحضور وزير الخارجية الأمريكي هنرى كيسنجر إلى القاهرة قال للرئيس السادات : « عندما اندلعت الحرب أيقظني آبا إيبان من نومي ليبلغني بأن مصر وسوريا هاجمتا إسرائيل . وأقول لك الحق . . إنني حزنت وقتها عليك ، وقلت : بعد ساعتين أو ثلاثة سيدمر الإسرائيليون الجيش المصري . وإسرائيل إذا انتصرت لثاني مرة فلن يستطيع أحد أن يتحدث معها ! ! »

السادات يصرخ « أنقذوني » ! !

في صباح يوم (٧ - أكتوبر ٧٣) وبينما أجهزة الإعلام الإسرائيلية تواصل - لليوم التالي - الحديث عن هجمات الجيش الإسرائيلي المضادة التي « تهزم » العدو « وتسحقه » ! نشرت صحيفة معاريف كاريكاتير بريشة الرسام كارثيل جردوش (دوش) ، انتشر بسرعة خاطفة بين الإسرائيليين الذين أخذوا يتفرجون عليه . . ثم ينفجرون في الضحك . . كان رسام الكاريكاتير (دوش) قد رسم شعب إسرائيل في صورة « إسرائيل » الذي يضع على رأسه قبعة « تنبل » وفي يده بندقية منتصباً أمام أنور السادات رئيس مصر الواقف على الجانب الآخر من القناة رافعاً يديه وهو يصرخ « أنقذوني » ! ! !

* * *

« هكذا لم تتدخل إسرائيل عن الإحساس بأنها دولة كبرى . . لديها جيش لا يقهر . . بينما على الجانب الآخر شعوب عربية مفككة غير متمدينة . . تعاني من الضعف والتخلف والجن . . »

« هكذا شهدت الساعات الثماني والأربعين الأولى من الحرب . . الحلقة الأخيرة في سلسلة التصريحات والتهديدات التي انطلقت بها شفاة قادة وجنرالات ومذيعي وكتاب إسرائيل . والمؤكد أنها فعلاً كانت الحلقة الأخيرة في مسرحية « إسرائيل الكبيرة » . كانت اللحن الأخير في معزوفة القوة الأسطورية للدولة الإسرائيلية . .

« هي الحلقة الأخيرة . . واللعن الأخير . . لأن طوفان أكتوبر اجتاح أمامه كل ألوان الدعاية الصهيونية . . ومزقت موجاته الجارفة أوراق « مسرحية إسرائيل الكبرى » وأسكتت تماماً جوقة العازفين في أوركسترا الإعلام الصهيوني عن جيشهم الذي لا يقهر . . ودولتهم التي لا تهزم !

• عفواً . . . لقد تخلّيت - لحظة - عن منهجى . . . ووجدتني أعلق بصوت مسموع على انهيار الأسطورة الإسرائيلية . تحت طوفان أكتوبر ويشفع لى . . أن الصفحات التالية . . وحتى نهاية هذه الدراسة سوف تتضمن هذا المعنى نفسه . . وربما هذه الكلمات نفسها على لسان إسرائيليين وخبراء عسكريين وسياسيين عالميين . - يشفع لى ذلك بالتأكيد - كما أن لدى عذراً شخصياً آخر . وهو أنني كشاب عربي عاش نكسة ٦٧ ضابطاً احتياطياً بالقوات المسلحة . ثم كأديب وإذاعي شعرت بحدة وقوة ما عاناه كل عربي من إحساس بالذل والمهانة كانت تغذيه دائماً الأقوال والأفعال الإسرائيلية منذ انتهت تلك الحرب . . وعلى مدى السنوات الكابوسية التي امتدت بعدها . . ولم تنته إلا باندلاع حرب أكتوبر ١٩٧٣ . .

هذا هو عذري الذي أرجو أن أفسره تدخل المباشروا تعليقي بصوت مسموع على آخر فصول الدعاية لإسرائيل الكبرى . .

وكيف بدأت تواجه الواقع الذي كشفها وعراها تماماً .

• والآن - وكما ألمحت في بداية هذا الفصل - نصل إلى الصورة الأخرى لإسرائيل . . صورة إسرائيل الصغرى كما كشفت الستار عنها حرب أكتوبر . حرب أكتوبر التي قوضت كل أركان الدعاية والنظريات والمسلمات التي جعلت من إسرائيل - على مدى ست سنوات وبضعة شهور - دولة كبرى . . تقف وحدها في الشرق الأوسط قادرة على فرض إرادتها . . واثقة في حاضرها ومستقبلها

والحقيقة أنه يكفي تماماً أن أعود بك - أيها القارئ العزيز - إلى الصفحات الأولى التي أجبت فيها على سؤال « لماذا الطوفان » فهذه الصفحات تتضمن تصريحات القادة الإسرائيليين عن نتائج الحرب . . وكيف ترنح الغرور . . مع سقوط جيش الدفاع . . أقول تكني تلك الصفحات . . لكي تبدو المقارنة بين ما قالوه بعد يونيو ٦٧ . وما قالوه بعد أكتوبر ٧٣ شاهداً حياً على الآثار الخطيرة التي أحدثتها حرب أكتوبر . . وكانت بمثابة الطوفان الذي كادت تغرق إسرائيل في مياهه ودمائه ورصاصه . .

ومع ذلك فإنني حرصاً مني على تعميق ملامح الصورتين (ما قبل أكتوبر . . وما بعده) وحتى تكون الفجوة الهائلة بين هاتين الصورتين . . إجابة أخرى أدق وأشمل على من يتساءل عن آثار حرب أكتوبر على إسرائيل وكيف نسميها طوفاناً أو زلزالاً . . من أجل

ذلك . . أضيف - الآن - بعض التصريحات والمواقف الإسرائيلية بعد تبلور نتائج عمليات الحرب - وما يعنى هنا هو تبيان الحجم الكلى والعام لما جرى لإسرائيل من خلال المقارنة البحتة ، ثم ندخل بعد ذلك فى تفاصيل التفاصيل . . من خلال مراحل الطوفان المتتالية .

* * *

نهاية دولة إسرائيل الكبرى :

فى مجلة « لانوفيل أوبزرفاتور » الفرنسية كتب فيكتور سيجلمان (وهو كاتب إسرائيلى مقالاً تحليلياً بعنوان « نهاية دولة إسرائيل الكبرى » قال فيها : لقد اختفت تماماً أغاني الانتصار التى كانت ترددها إذاعة إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ عن (شرم الشيخ) و (القدس الذهبية) . لقد حلت محلها اليوم (بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣) أغنية تلاحق الإسرائيليين ليل نهار من الإذاعة والتلفزيون . وتقول كلمات هذه الأغنية :

« باسم الجنود الذين احترقوا فى دباباتهم . .

باسم الطيارين الذين هبطوا والنيران مشتعلة فى أجسادهم . .

باسم . . وباسم . . وباسم

أعذك يا صغيرتى العزيزة أن هذه الحرب ستكون الأخيرة . . نعم الأخيرة . .

الأخيرة . . الأخيرة ! ! »

ويعلق الكاتب على ذلك بقوله : (كانت أغاني ٦٧ تعبر عن فرحة الحياة ، ولذة النصر ، أما اليوم - بعد حرب أكتوبر - فقد خارت قوى « الأبطال » ولم يسبق فى تاريخ إسرائيل القصير أن شعر الإسرائيليون بمثل هذه الشدة والحدة بالتعطش إلى السلام والهدوء وزوال التوتر . إن الشاغل الرئيسى لرجل الشارع الإسرائيلى يتركز الآن فى الانتهاء من هذه الأمور بسرعة ، وفى إعادة الجنود المرابطين على الجبهة ، ووضع حد لقائمة القتلى والمفقودين والجرحى ، لكى يتسنى له أن يلتقط أنفاسه التى كادت تتوقف . وعند ما يقول الجنرال ديان « لسوف نصبح عما قريب ، أقوى بكثير مما كنا قبل الحرب » حينما يقول هذا يغضب الإسرائيليون أو يتسممون باستخفاف . . لقد فقدوا الثقة فى وزرائهم وأصبحوا يشكون فى جنرااتهم السياسيين الذين أخذوا - من جانبهم - يتبادلون الاتهامات ! ! وهذا أحد الأدلة على أن صورة إسرائيل « كدولة كبرى تقف راسخة ومستحكمة للغاية » . . هذه الصورة اختفت مع حرب أكتوبر ، وبدون أن تخلف أية آثار .

لم أستطع أن أبكى ! !

إنها بالنسبة لهم في إسرائيل كانت في موقع أهم العجوز ، وواحدة من بقايا جيل الرواد الكبار . . فإنهم اكتفوا بأن قالوا لها (. . معذرة . . لابقاء لك بعد ما فعله الطوفان بنا) . وانطوت هي على نفسها تجتر آلام الهزيمة . . وضياح الأحلام وأسمرت إلى أوراقها تدفن عزلتها فيها . . لتقدم قصة حياتها في كتاب نشر أخيراً . . وبعد عامين من طوفان أكتوبر .

وقد تساقطت اعترافات جولدا مائير . . الحزينة الياثسة . . فقالت بالحرف الواحد : لا شيء أقسى على نفسي من كتابة ما حدث في أكتوبر ١٩٧٣ ، فلم يكن حدثاً عسكرياً رهيباً فقط ، وإنما كان مأساة عاشت وسوف تعيش معي حتى الموت . . لقد وجدت نفسها فجأة أمام أعظم مسئولية عاجزة عن اتخاذ قرار أمام أعظم تهديد واجهته إسرائيل منذ إنشائها .

« إن صدمتنا لم تتمثل فقط في الطريقة التي حاربونا بها ولكن لأن عدداً من المعتقدات الأساسية التي آمنا بها قد انهارت أمامنا » ، « فقد آمنا باستحالة وقوع حرب في شهر أكتوبر ، وآمنا بأننا سوف نتلقى إنذاراً مبكراً لكل تحركاتهم قبل نشوب الحرب . وآمنا بقدرتنا التامة على منع المصريين من عبور قناة السويس » . . وقد انهار ذلك كله فجأة . إن ما حدث شيء لا يمكن وصفه . ويكفي أن أقول إنني لم أستطع أن أبكى وكنت أمضي معظم الوقت في مكتبي ، وأحياناً أذهب إلى غرفة العمليات وكانت هناك اجتماعات متواصلة ، وتليفونات من أمريكا . . وأخبار مروعة من الجبهة بينما كانت خسائرننا تمزق قلبي . . ! ! »

بطل إسرائيل . . ينهار :

في اليوم الرابع للقتال (٩ أكتوبر ١٩٧٣) قابل الجنرال موشيه ديان (بطل إسرائيل) محرري الصحف اليومية وقال لهم بلهجة مأساوية وروح معنوية محطمة : لن أخفي عليكم إن قواتنا في الجولان وفي قناة السويس في حالة ذعر تام . ولم يعد لخط بارليف وجود . كما أن أجهزة إشعال مياه القناة صارت خرافة . وأصارحكم بأنني لا أتمنى أن أكون في هذه اللحظات في موقف رجال مدرعاتنا . . أما سلاحنا الجوي فقد تم تحييده وقد بلغت خسائرننا فيه - في اليوم الأول فقط - ستين طائرة منها ٣٦ طائرة فانتوم .

هذا ما قاله ديان - منهاراً - في اليوم الرابع - وقد أخفت الرقابة الإسرائيلية الكثير مما اعترف به - ومن جهة أخرى فإنه في ثاني أيام القتال (يوم الأحد ٧/١٠/٧٣) عاد من الجبهة ليلتقي برئيسة الوزراء جولدا مائير وقال لها . . إن الموقف في الجنوب سيء جداً . وإنه لا بد من اتخاذ موقف الدفاع وأن تنسحب القوات الإسرائيلية إلى خط دفاعي جديد - قال ديان هذه الكلمات اليائسة لجولدا مائير - وقبل أن يغادر مكتبها ، عاد وأغلق الباب عليهما . . ثم قال لها : « هل تريدني مني أن أستقيل . . إنني على استعداد لأن أفعل ذلك فوراً » .

والمعروف - كما قالت مائير نفسها - أنها آثرت أن تبقى عليه حتى لا يحدث مزيد من الانهيار بين القوات . وقد أعطت معظم صلاحياته لحايم بارليف وغيره من الجنرالات الذين أعيدوا إلى الخدمة العسكرية . . لعلهم يفعلون شيئاً ! ! - كما أنها في الوقت نفسه سارعت إلى الاتصال بأمريكا . . طالبة النجدة ! - ومن جهة أخرى تعرض ديان لأقصى ألوان النقد والتجريح حتى إن مدير استخباراتهم السابق ومعلقهم العسكري حايم هيرتسوج قال موجهاً اتهامات قاسية للغاية لكفاءة موشيه ديان « إن بعض نصائح الجنرال ديان أثناء حرب أكتوبر كادت تقود إسرائيل إلى كارثة » .

وإذا كانت صورة إسرائيل الكبرى قد تقلصت وعادت إلى حجمها الطبيعي فإن ذلك بطبيعة الحال جاء نتيجة لتقلصات وانهيارات في العمود والأسس التي قامت عليها تلك الصورة السابقة . . وما لا شك فيه أن ديان وعددًا من الجنرالات كانوا أحد تلك العمود والأسس . . بل إنهم كانوا في الوقت نفسه أحد مظاهر القوة الأسطورية لإسرائيل . ولعل نظرة أخرى على ما جاء في المصفحات الأولى من فصل « إسرائيل دولة كبرى » توضح هذه الحقيقة بشكل قاطع .

ومن ثم فإن انهيار ديان ورفاقه كان انهياراً لجانب من جوانب « إسرائيل الكبرى » ولعل ما يضيف إلى هذا المعنى ما قاله المؤلفون الإسرائيليون السبعة لكتاب التقصير . . حين وصفوا زيارته لجبهات القتال - فقالوا « كان ديان - لأول مرة - يبحث عن شيء يستمد منه الإلهام والتشجيع . إنه لم يكن قائد الأيام الخالية الشهير الذي كان قدومه إلى الجبهة يشيع حوله جواً من الشجاعة والكبرياء والثقة بالنفس . لقد عاد ديان في حرب أكتوبر إلى صورة الإنسان الفاني العادي ، واصطدم الرجل الذي كانت له شعبية جارفة في الشرق الأوسط كله - اصطدم (بعد الحرب) بالظاهرة المذهلة المتمثلة في فقدانه لمكانته .

« لقد تبخرت الأسطورة » . وبعد أن كانت استفتاءات الرأي العام تقول مثلاً في عام ١٩٧٠ إن ديان هو القائد الأكثر شعبية في نظر ٩١ ٪ من سكان إسرائيل . . هبطت هذه النسبة في نهاية عام ١٩٧٣ إلى ٢ ٪ فقط ! !

إسرائيل . . دولة صغيرة أكثر من اللازم :

جولدا مائير . . - وقد التزمت الصمت إلى حد كبير بعد حرب أكتوبر - خرجت عن صمتها حين دُعيت إلى إلقاء محاضرة بتل أبيب فقالت :
« إن إسرائيل دولة صغيرة أكثر من اللازم ، والشعب الذي يعيش في إسرائيل صغير جداً . إنني أرى أن خطوات السلام التي تفرضها نتائج الحرب تفرض على كيان إسرائيل وشعبها عبئاً ثقيلاً »

ملحوظة : جاء هذا الاعتراف من جولدا مائير . . في الوقت الذي كانت تستعد فيه لإصدار كتابها « قصة حياتي » وهو الكتاب الذي استشهدت ببعض ما جاء فيه . . في بداية هذا الفصل .

وظهر حجمها الصغير - أيضاً - في مدارسهم :

في ١٢/١٢/١٩٧٣ أعلنت وكالة الأنباء الفرنسية أن وزارة التعليم الإسرائيلية قامت بتوزيع كتيب صغير « دعت فيه المدرسين إلى تهيئة طلبتهم معنوياً لتقبل حقيقة أن دولة إسرائيل أصغر بكثير من تلك التي اعتادوها » . والغريب أن بعض قادة إسرائيل قد عبروا عن غضبهم من هذا الكتيب الخطير ، وصرحوا لصحيفة جيروزاليم بوست بأن الأمر يبدو وكأن وزارة التعليم الإسرائيلية قد قررت - بمفردها - الانسحاب من جانب واحد .

وقد علقت وكالة الأنباء الفرنسية على هذا الكتيب قائلة : لو أن وزارة التعليم الإسرائيلية قد نشرت ووزعت هذا الكتيب منذ عام ٤٨ لتهيئة طلبة إسرائيل معنوياً وتنشئتهم على أن إسرائيل ما هي إلا دولة صغيرة وسط محيط من دول مسألة ذات حضارات عريقة وأنها إذا أرادت الاستقرار والأمن فلا بد من احترام أمن وحدود جاراتها - لو أن وزارة التعليم فعلت ذلك منذ هذا التاريخ لما كانت كل هذه الحروب التي فقدت فيها إسرائيل الآلاف والآلاف من شبابها .

هذا هو تعليق الوكالة الفرنسية على كتيب وزارة التعليم الإسرائيلية الذي عبر خير

تعبير عن الواقع الذى خلقه أو كشفه طوفان أكتوبر . أما غضب أولئك القادة الإسرائيليين من هذا الكتيب فلم يعد ذا موضوع لأن وزارة التعليم لم تعد هى وحدها التى تقبل مبدأ الانسحاب . . وإنما هم أيضاً - سواء كانوا داخل الحكومة أو خارجها - استسلموا لهذا الواقع - ولو جزئياً - من خلال اتفاقيات فك الاشتباك التى بدأت بعد وقف إطلاق النيران . وبدأ معها الانسحاب المرحلى إلى حدود ما قبل ١٩٦٧ .

ونحن بغض النظر عن تعليق وكالة الأنباء الفرنسية على هذا الكتيب التعليمى الخطير الذى يعكس « تقلص إسرائيل وتساقط أوراق الدعاية الصهيونية التى جعلت منها دولة كبرى » - يهمنى أن نرى كيف كانت الكتيبات التى يلقيها الإسرائيليون لأطفالهم قبل حرب أكتوبر .

إن الصحفي الإسرائيلى « تامر مروز » يصف أسلوب تعليم أطفال إسرائيل ويحلله فى مقال له بصحيفة هآرتس - يقول فيه :

لقد كان من أبرز الظواهر التى تثير الألم والاستياء فى مجال أدب الأطفال فى إسرائيل ، ما نراه من سخف وبلاهة فى سلسلة كتب الأطفال التى تتحدث عن كيفية انتصار الأطفال الأبطال من الإسرائيليين على العرب البلهاء السذج ! !

ولم يكن الصحفي الإسرائيلى « تامر مروز » هو وحده الذى بدأ يتنبه لأسلوب تعليم وتثقيف أطفالهم . فاهى ذى أم إسرائيلية لطفلة تبلغ من العمر ثمانية أعوام تقول : « لقد انتابتنى الدهشة عندما اطلعت على ما يقرؤه الأطفال ، إننى لم أقرأ فى حياتى أسوأ من هذا الكلام .

وفى حديث لصحفى إسرائيلى قال أمين إحدى مكتبات تل أبيب : « إن معظم الكتب التى يقرؤها الأطفال تتحدث عن الطفل العبرى النقى الطاهر الذى ينتصر على العرب الخنازير الجبناء » .

* وهكذا يتأرجح الطفل الإسرائيلى الآن بين الكتب « التى تهيئهم لتقبل حقيقة أن دولة إسرائيل أصغر بكثير من تلك التى اعتادوها » وبين الكتب التى ظلت - تصور لهم العرب كخنازير جبناء يشتهون قتل الأبرياء ، ويهمنى هنا أن نقول إن هذا الكتيب الذى وزعته وزارة التعليم الإسرائيلى لا يعنى أن مناهج التعليم هناك قد اتخذت كلها هذا الاتجاه . . فما زالت الكتب الأخرى تصدر وتنشر .

اسألوا حرب أكتوبر :

بمجرد أن توقف إطلاق النار ، بدأت الدراسات والتحليلات لآثار الحرب على إسرائيل ، وقد التقت جميعاً على أنها كانت بمثابة (الطوفان) ، وقد حاولت هذه الدراسات إلقاء الضوء من زوايا وأبعاد مختلفة على ما أحدثته في إسرائيل طوفان السادس من أكتوبر ، أو الظروف التي قادت إليه . وقد شارك كثير من الأساتذة والخبراء والكتاب الإسرائيليين في هذه الدراسات . . كما اهتمت المعاهد والدوائر العالمية بتقديم رؤيتها هي الأخرى .

ومن الإسرائيليين الذين يحظون باحترام الجماهير والذين كتبوا عن الطوفان البر وفيسور يعقوب تلمون أستاذ التاريخ المعاصر في الجامعة العبرية ، وقد قال في إحدى مقالاته :

« لقد سكب انتصارنا عام ١٩٦٧ نشوة القوة في أفكارنا وتصرفاتنا وجرف معه كل انزان ، وكانت القوة قادرة على كل شيء ، وكان النجاح مبرراً لكل شيء - وأصبح طبيعياً أن تسود بيننا العجرفة والاحتقار والاستهتار بالرأى العام العالمي .

ثم جاءت حرب السادس من أكتوبر فقوضت كل شيء . وأصبح علينا أن ندرك جيداً أنه بدون سلام لن يكون لنا وجود ، وأن قبولنا بحدود أضيّق لا يعنى فناء إسرائيل . وخاصة أن مسألة الحدود الآمنة التي سادت بعد ٦٧ . . لم تعد مقبولة . .

... و . . اسألوا حرب أكتوبر ! ! »

قرون إسرائيل . . انخفضت . . ثم تلاشت :

قال الكاتب الإسرائيلي الياهو عميكام في مقال له بصحيفة يديعوت أحرونوت في

١٩٧٤/٨/٩ :

إن الانتصار العربي في حرب أكتوبر قد فرض نتائجه حتى على العالم غير العربي . . فطيلة ست سنوات سمعنا من معلقينا من يقولون - وقد ارتسمت على وجوههم ابتسامة حكيمة حمقاء - « إن قرون إسرائيل انخفضت في العالم لأن العالم لا يحب المنتصرين ولكنه يتعاطف مع المهزومين » . هذا ما كان يقوله معلقونا الحكماء . . وعندما تحقق للعرب الانتصار العظيم في أكتوبر ١٩٧٣ تبددت ادعاءات هؤلاء المعلقين وسقطت تقديراتهم السابقة إذ وجدنا أن دول أفريقيا قد سارت وراء عيدي أمين في قطع علاقاتها مع الجانب المهزوم

- جانبنا - كذلك فعلت دول أمريكا اللاتينية .

وهكذا لم تعد قرون المسكينة منخفضة فقط ، بل إنها لم تعد قائمة على الإطلاق ! !

أخشى أن يحطم العرب عظامنا :

نعم . . هو نفسه دافيد اليعازر رئيس الأركان الإسرائيلي وصاحب التهديد الشهير بسحق عظام العرب (كما ورد في الصفحات السابقة) هو نفسه الذى أعد بياناً بعد فشل الهجوم المضاد - وكان سيذيعه في التلفزيون مساء ٨ / ١٠ / ٧٣ لولا تدخل المسؤولين عن رفع المعنويات . . ومنعهم لإذاعته .

ويقول اليعازر في هذا البيان (كما يروى الصحفى الإسرائيلى حاييم إيزاك في صحيفة معاريف الصادرة بتاريخ ٢٨/١٢/١٩٧٣) « خرج اليوم جيش الاحتياط إلى هجوم مضاد ، ولكن على أن أبلغكم بصدق أن هذا الهجوم فشل فشلاً ذريعاً ، وأن قوات العدو في البر والجو ، قوات هائلة ، حتى أجدنى مضطراً إلى الخوف من أن يحطموا عظامنا . إن أقصى ما نستطيع توقعه - في الظروف الحالية - هو أن يكتفى المصريون بصدنا في سيناء ! ! »

العقاب . . على السنوات السمان :

تعبيراً عن آثار الطوفان على المجتمع الإسرائيلى كتب مارك سيجال في جريدة جيروزاليم بوست :

يطرح الإسرائيليون الآن أسئلة تخوض في الأعماق البعيدة للأمر تصل إلى جذور أصولنا وهويتنا والمزاج السائد في بلادنا الآن .

إننا كما لو كنا قد استيقظنا فجأة من حلم جميل وكما لو كانت حرب أكتوبر لم يكفها أنها صدمتنا في آمالنا المادية لكى تصدمنا في مشاعرنا أيضاً .

إن هناك إحساساً بأننا تلقى عقاباً على السنوات السمان التى قضيناها قبل هذه الحرب . وكأنها لعنة كتبت علينا . إن حرب عيد الغفران هبطت على شعبنا دون انتظار وفجأة سمعنا الأصدقاء المخيفة لما حدث لنا وتغير العالم حولنا .

حين تكون الدولة . . بدون تقاليد :

لم يتوقف المعلقون والخللون الإسرائيليون عند الإحساس الواعي بتقلص حجم دولتهم أو بتحديد أكثر - تكشف الحجم الحقيقي لها بعد أن جرف طوفان أكتوبر كل أوراق الدعاية التي كانت تجعلها في صورة الدولة الكبرى - لم يتوقف هؤلاء المعلقون عند هذا الحد . . بل إنهم أخذوا يحللون الواقع الإسرائيلي . . ويكتشفون مظاهر الخلل الجذري في بناء هذا الكيان . . بل إن الأفراد العاديين بدأوا يتساءلون عن جذور أصولهم وهويتهم بما في ذلك من فقدان للثقة في أسس بقائهم .

وإن كان هذا المفهوم قد اتضح تماماً في مقال مارك سيجال (العقاب على السنوات السمان) فإنه يتضح أكثر فيما قاله « ميخائيل فيدمان » في ندوة معاريف التي نشرت في ١٦ / ٩ / ١٩٧٤ فنجده يقول: « إن إسرائيل ليست إلا دولة جديدة ومعظم سكانها من المهاجرين وينقصها التقاليد العريقة التي تستطيع أن تساعدنا في التغلب على مثل هذه الأزمات . .

إسرائيل « التي كانت لن تكون » :

وجيشها كالعامل الذي يحتاج دائماً إلى مائة ليرة أخرى حتى يكمل الشهر :

هذا معلق وخبير آخر له وزنه في إسرائيل على الأقل ، فهو كبير معلق صحيفة « هآرتس » للشئون الأمنية ، وقد عمل مراسلاً حربياً منذ الستينيات في فيتنام والشرق الأوسط ، إنه المحرر العسكري زئيف شيف ، الذي نشر دراسات عديدة عن حرب أكتوبر ، وصدر له أخيراً كتابه « زلزال في أكتوبر » - ونحن نتوقف أمام ما قاله من الزاوية التي يدور حولها هذا الفصل فنراه يقول :

« إن إسرائيل التي كانت « لن تكون .

إن مصدر الهزة التي واجهت إسرائيل في الأساس هو في الإحساس بأن الدولة قد عادت فجأة إلى مراحلها الأولى ، قد وجدت نفسها تقف مرة أخرى أمام مخاطر تحيط بوجودها ، ومرة أخرى تأكدت إسرائيل أن هزيمتها في معارك محلية كبيرة قد يعرض وجودها أيضاً للخطر .

وفي جانب آخر من دراسته يقول زئيف شيف :

لقد أكدت حرب يوم الغفران أن الإسرائيليين شعب صغير ، وكالعامل الحذر في ميزانيتها والذي يجد مع ذلك أنه ينقصه دائماً مائة ليرة إسرائيلية حتى يكمل آخر الشهر ، فكذا حال الجيش الإسرائيلي إذ ينقصه دائماً تشكيلة واحدة كبيرة ، أو عدة تشكيلات .

* * *

ونكتفي بهذه الأمثلة لما اعترف به الإسرائيليون أنفسهم من انهيار كامل لصورة إسرائيل الكبرى ، كما كانوا يؤكدون من قبل ، وظهور حجمها الحقيقي كدولة صغيرة . . بلا تقاليد عريقة . . يبحث سكانها عن أصول هويتهم وجذورهم . . يعتمدون كل الاعتماد على حليفة كبرى لتحتفظ لهم بقاءهم مستجيبة لاستغاثاتهم . . وصرخاتهم . . أقول نكتفي بهذه الأمثلة . . لتتوقف الآن أمام أمثلة أخرى لرؤية العالم الخارجي لإسرائيل - بعد الطوفان . .

دير شيبجل . . . ترى الصورة الجديدة :

لم تكن إسرائيل وحدها هي التي أفاقَت على الحقيقة الثابتة حين تدفق طوفان أكتوبر - فقد فتح العالم كله عينيه ليستوعب الصورة الجديدة لمنطقة الشرق الأوسط . . بعد أن حجب الانبهار بإسرائيل في ١٩٦٧ سبل الرؤية الواضحة أمامه . ولعل هذا ما يترجمه بشكل محدد جداً موقف جريدة دير شيبجل الألمانية الغربية . . فبعد أن أعلن رئيس تحريرها - كما أوردت في الصفحات السابقة - أنه سيجبر محرري الجريدة على تعلم اللغة العبرية والكتابة بها لأنها لغة الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر . . خرجت الجريدة بعد أيام من حرب أكتوبر (في ٢٢/١١/١٩٧٣) لتقول : « إن اجتياح المصريين لخط بارليف ، جعل الأمة العربية بكاملها تنفض عن نفسها آثار المهانة التي تحملت آلامها منذ ١٩٦٧ » هكذا اعترفت الجريدة الألمانية بأن ما حدث في ٦٧ . . لم يشطب من خريطة المنطقة كل شيء . . . لتبقى فيها إسرائيل وحدها وإنما كان ما حدث شيئاً عارضاً . . ما لبثت الأمة العربية أن نفضت عن نفسها غباره ، وبالتالي فإنها حطمت كل الأساطير التي أحاطت بإسرائيل .

الدولة التي تحولت إلى سلم خشبي غير مترابط :

مرة أخرى مع المؤلف الفرنسي جان كلود جيويه . . في تحليله لآثار الطوفان الذي فجره العرب في أكتوبر ٧٣ حيث يقول :

« إن الشكوك ، كل الشكوك التي تحتويها دولة إسرائيل الجديدة ، قد انبعثت مع الانهيار الذي أحدثه يوم كيبور (حرب أكتوبر) وفي وسط أسبوع السكوت ٣٧٣٤ القاسي ها هي تلك الشكوك تطفو من جديد في الضمائر وقد تشابكت وامتزج بعضها ببعض .

إن إسرائيل تنجرف وسط الحطام ولم تعد الدولة اليهودية في تلك اللحظة سوى سلم خشبي هش غير مترابط كما ينبغي له أن يكون » .

الاحتفال الحزين :

قالت وكالات الأنباء : كان احتفال إسرائيل بالذكرى الخامسة والعشرين لقيامها . . الذي وافق ١٥ مايو ١٩٧٣ . . آخر احتفال بعد يونية ١٩٦٧ . . لأنه أعقبه بعد شهر قليلة نشوب الحرب الرابعة في أكتوبر ١٩٧٣ - فماذا كانت صورة الاحتفال بالذكرى السادسة والعشرين الذي وافق ١٥ مايو ٧٤ أى بعد حرب أكتوبر بستة شهور تقريباً ؟ ؟

التاريخ ١٥ مايو ١٩٧٤ :

المنظر :

متغير تماماً - شكلاً ومضموناً - عن آخر احتفال . فإسرائيل اليوم تقيم الاحتفال السنوي لكنه هذه المرة . . كثيب حزين مر المذاق تحتويه الرهبة . جماهير الشعب ورجال الحكومة وأعضاء الكنيست يتلعون الإحساس بالأسى والانهيار ، إن إسرائيل اليوم تقيم حداداً علنياً على آلاف القتلى من شبابها الذين سقطوا (في حرب الغفران) بالمقبرة العسكرية الجديدة في « كريات شاؤول » حيث ترقد الجثث بلا حراك . ويقف الإسرائيليون منكسي الرؤوس ينظرون طويلاً ويبيكون . النساء تضرب صدورهن بأيديهن ويجادلن القدر الذي أنكلهن . . هذه المرة لا احتفالات ولا زينات . . لا « فانتوم » ولا « سكاي هوك » ولا مدرعات ولا صواريخ . .

لقد بدأت صفحة جديدة في التاريخ .

لن تكون . . كما كانت :

في كتابه (الأيام المؤلمة في إسرائيل) الذى عكس الكثير مما أحدثه طوفان أكتوبر في إسرائيل ، يقول جان كلود جييوه :

« ليس هناك اليوم من يعرف المستقبل الذى سوف تثول إليه إسرائيل وقد أصبحت تقف فجأة وحيدة في عالم متغير ، على أن هناك شيئاً واحداً مؤكداً بما لا يقبل الشك وهو أنه لن تقوم بعد الآن ، وإلى الأبد ، إسرائيل كما كانت قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

إنهم معذورون في قلقهم وخوفهم :

هذا المثال له شقان كلاهما يعكس آثار حرب أكتوبر ، ويتضح الشق الأول في الموقف الذى اتخذته معظم دول العالم وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية من محاولات الحل السلمى التى سعت إليها جاهدة القيادة المصرية ، وكانت الاستهانة بهذه المحاولات وبالعالم العربى كله هى رد الفعل الوحيد تقريباً حتى إن وزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسنجر قال لشخصية مصرية كبيرة (حافظ إسماعيل مستشار الرئيس لشئون الأمن القومى في ذلك الوقت) قال له كيسنجر في فبراير ١٩٧٣ - أى قبل الحرب بشهور - « إنكم تتحدثون على حل سلمى عادل من وجهة نظركم كما لو كنتم المنتصرين في يونيو ٦٧ فلتكونوا واقعيين وعمليين » إن إسرائيل هى التى انتصرت في ٦٧ ، وأنتم بوضعكم الحال لا يمكن لكم - منطقياً - مواجهتها مرة أخرى عسكرياً .

ولكن ما إن اندلعت شرارة حرب أكتوبر ، وهدد الطوفان إسرائيل حتى سارعت دول العالم - وعلى رأسها - تماماً - أمريكا - إلى البحث عن حل سياسى . وبدلاً من لهجة الاستهانة قام الوزير الأمريكى برحلات مكوكية متعددة بين أطراف النزاع للوصول إلى اتفاقيات تنتهى بالحل الشامل والعادل .

هذا هو الشق الأوسط كما عبر عنه البروفيسور الإسرائيلى شمعون شامير بقوله « لقد استطاع العرب تغيير سياسة أمريكا للمرة الأولى في الصراع العربى الإسرائيلى » .

- أما الشق الثانى فيترجمه ما قاله الدكتور هنرى كيسنجر ، ومساعدته سيسكو في حديثهما مع الفريق حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية (وقائد القوات الجوية المصرية في أثناء حرب أكتوبر) .

قال وزير الخارجية الأمريكى :

« إنكم - فى مصر - لا تقدرون ماذا فعلتم فى أكتوبر ، ولا تعرفون صداه الذى ما زال يتردد هناك على الناحية الأخرى (إسرائيل) . . إنهم معذورون فى القلق والخوف الذى يشعرون به ، لأن عندهم حالة خوف وفزع من الجيش المصرى ، وليس عندهم أدنى أمان من المصريين ، فإنهم يخشون أن يتكرر أكتوبر مرة أخرى فى سيناء ولذلك تراهم يدققون فى كل شىء ، ويختلفون على أى شىء » .

هذا ما قاله كيسنجر . . أما مساعدته سيسكو فقد قال أكثر من مرة موجهاً كلامه

لنائب رئيس الجمهورية المصرية فى بعض اللقاءات التى جمعت بينهما :

« اسمح لى أن أقول لك إن أحداً لا يخشى ما صنعتم فى أكتوبر وما جرى فى الحرب مثل ما يخشاه الإسرائيليون ، فقد تركت عندهم حالة من الشك والقلق . إنهم فى حالة خوف منكم ، ويقولون ماذا يضمن لنا ألا يفعلوها ويعيدوا الضربة وقت اللزوم . . وقد تجيء هذه المرة من أبو رديس أو الممرات » .

* * *

فارق شاسع ومثير بين الصورتين . . صورة إسرائيل ما قبل حرب ٧٣ وصورة إسرائيل بعد هذه الحرب بما بينهما من هوة زمنية ونفسية وعسكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية .

فارق شاسع وخطير بين الصورتين . . لا يمكن أن تحدثه حرب عادية إنه فقط وليس غيره « الطوفان » الذى ينتج عنه مثل هذا الفارق أو هذه الهوة الهائلة . . بل إنه الطوفان الذى يحتاج الصورة الأولى ويفرقها فى مياهه ودمائه . . ولا يبقى منها أى شىء - وفى الوقت نفسه يزيع الستار عن الصورة الثانية . . باعتبارها الصورة الحقيقية الخالية من مساحيق الدعاية الضخمة .

